ثلاثية الدين والعنف والسياسة في رواية أشباح الجحيم للكاتب الجزائري ياسمينة خضرا

مدرق نارو

زوليخة

مخبر التأويل والدراسات الثقافية المقارنة

جامعة خنشلة

ملخص باللغة العربية

يهتم هذا البحث بدراسة أهم القضايا السياسية والأخلاقية والاجتماعيةالتيتناولتها رواية (**أشباح الجحيم**) لياسمينة خضرا، هذا الكاتب الذي يعد من العلامات البارزة في مجال النقد والإبداع الجزائري لغزارة إنتاجه وإبداعه في مجال الرواية، حيث عبر الكاتب من خلال هذه الرواية عن المعاناة الحقيقية التي تعرض لها الشعب العراقي أثناء الغزو الأمريكي، وكيف تحولت البلاد خلال فترة وجيزة إلى بركان من الفتنة ما بين العمليات الإرهابية ومقاومة الاحتلال،فاستطاع أن ينقل هذه المأساة في قالب فني إبداعي هيمن عليه الصراع بين الدين والسياسة والعنف.

الكلمات المفتاحية: أشباح الجحيم؛ الدين؛ العنف؛ السياسة؛ الإرهاب؛ الثيمة.

Résume

La présente recherche s'intéresse à l'étude des sujets politiques moraux et sociaux traités dans le roman "**Achbah Eldjahim**" "les Fantômes de l'enfer" de **Yasmina Khadra** cet écrivain qui est considéré comme l'un des grands spécialistes de la critique et de la créativité ligérienne vu la profusion de sa production dans le domaine du roman. Ce dernier a exprimé à travers ce roman des souffrances réelles dont le peuple Irakien était victime et ce pendant l'envahissement américain et comment en un laps de temps s'est transformée en un volcan de conspirations entre les attentats terroristes et la résistance à l'occupation, Il a sur transmettre ces souffrances dans un style

المنارة للاستشارات

artistique et créatif dominé par le conflit entre la religion, la violence et la politique.

Mots-clés: fantômes de l'enfer, religion, violence, politique, terrorisme

مقدمة

إذا كان الشعر هو ديوان العرب في وقت مضى، فإن الرواية هي ديوان العرب في وقتنا الراهن،لكونها تعد شكلا من أشكال التملك الفني للواقع تسعى دائما لارتياد التجربة الإنسانية فهي الأقدر على التعبير على انشغالات الإنسان المعاصر ورصد مختلف مظاهر وظواهر المجتمع وتحولاته السياسية والاجتماعية والفكرية بحكم أنها قادرة على استيعاب كل القضايا الراهنة نظرا لاحتوائها تلك القضايا الراهنة، وامتلاكها مقومات البعد المأساوي لها والقدرة على تجسيدها فنيا ومن بين هذه الروايات نجد رواية "**أشباح الجحيم**" التي تعد من بين أهم الروايات التي نالت اهتماما كبيرا من طرف الأدباء والنقاد لكونها تمثل إحدى الروايات الثلاثة المعروفة بـ(**سلسلة فسيفساء**) التي أطلقها الكاتب **ياسمينة خضرا** على روايته هذه متناولا فيها قضية من بين أهم القضايا الشائكة والشيقة ألا وهي الصراعات بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية من حيث العقيدة والفكر والأيديولوجيات المختلفة،وقد تجلت تلك الأحداث في العراق والتي اختار الكاتب أن يعبر عنها من خلال روايته "**أشباح الجحيم**"،وقد عبر الكاتب من خلال هذه الرواية عن المعاناة التي تعرض لها أبناء الشعب العراقي خلال مرحلة الغزو الأمريكي للعراق وكيف تحولت البلاد خلال فترة وجيزة إلى بركان من الفتنة ما بين العمليات الإرهابية ومقاومة الاحتلال وتداعيات تلك الأوضاع على حياة العراقيين، وفي فلسطين من خلال أحداث رواية "**الصدمة**"هذه الأخيرة التي تحدث فيها عن النضال الفلسطيني، فاكتسبت هذه الرواية شهرة واسعة وحازت على جوائز أدبية متعددة وفي أفغانستان من خلال رواية "**سنونوات كابول**" التي استطاع فيها

المنارة للاستشارات

أن يميط اللثام عن بعض السلوكيات المعقدة المنتشرة في المجتمعات الإسلامية بين القديم والحديث.

ولعل أبرز ما دفعني لاختيار رواية " **أشباح الجحيم** " لياسمينة خضرا موضوعا للدراسة هي المتعة الفنية التي أمنتني بها هذه الرواية حيث تمكنت من بناء تصور واضح عن فضاء وشخصيات هذه الرواية، كما أن أحداث هذه الرواية عبرت عن مأساة ومعاناة أهل العراق في قالب فني إبداعي هيمن عليه الصراع بين الدين والسياسة، هذا من جهة والصراع بين الدين والعنف من جهة أخرى، فاختار الكاتب شابا عراقيا تدور أحداث الرواية حول معاناته هو وعائلته. ولد وتربى في قرية "**كفر كرم**" وهي قرية بالبادية تقبع بعيدة عن آثار الحضارة والرفاهية، منزوية بين ثنايا مظاهر الفقر، لكن.. وبالرغم من عزلتها وانطوائها على نفسها فقد كانت تتلقى غارات من المستعمر بين الفترة والأخرى.

هذه الرواية بمثابة صورة للأحداث التي مرت بها العراق أثناء الاحتلال وتعبيرا عن هذه المعاناة التي تأذت منها كل شرائح المجتمع.إضافة إلى تناول الكاتب في روايته مسائل سياسية ودينية وأخلاقية.

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن كثير من الأسئلة أهمها:

1- هل استطاعت رواية (أشباح الجحيم)أن تعكس مأساة ومعاناة أهل العراق فعلا؟

2- ما هي أهم القضايا السياسية والدينية التي كشف عنها ياسمينة خضرا في روايته؟

3- كيف صورت الرواية علاقة الصراع بين الدين والسياسة؟هذا من جهة ومن جهة أخرى علاقة الصراع بين الدين والعنف؟

4- كيف تحول العنف إلى موضوع وسمة للرواية؟ وما هي الآليات والأشكال التي تجلى فيها ؟ وما مصدره؟

5- كيف تعددت الرؤى والأصوات حول القضايا المطروحة (الدين، السياسة، العنف) داخل المتن الروائي؟

المنارة للاستشارات

6- ما مدى الهام هذه الرواية في رصد التحولات العربية؟

هذا ما سأحاول الإجابة عنه في هذه الدراسة فقد وظفت في عملية مقاربة النص الروائي المنهج الموضوعاتي في عملية تحليل ودراسة مضمون الرواية، كون المنهج الموضوعاتي أكثر مناسبة لطبيعة الموضوع،فهو يعمل على التركيز على القضايا والموضوعات إضافة إلى المشكلات الواقعية والاجتماعية والإنسانية والأخلاقية من خلال الشكل وتلاؤمه مع المحتوى اعتمادا على الأسلوب والتركيب أو التركيب النصي الدلالي بهدف استخراج أهم الجوانب الموضوعاتية التي اشتملت عليه هذه الرواية. فالرواية اشتملت على جوانب عدة تعرض لها هذا المواطن إلا أن التحليل الذي نحن بصدده سوف يقتصر على ثلاث ثيمات وهي ثيمة الدين والسياسية والعنف.

أولاً- ثيمة الدين في رواية أشباح الجحيم:

لقد تم تطوير مفهوم الدين عبر أشكال مختلفة في شتى الثقافات. فبعض الديانات تركز على الاعتقاد بإله معين، في حين تؤكد أديان أخرى على الجانب الواقعي للحياة. وبعض الديانات اقتصرت على الخبرة الدينية الذاتية للفرد، في حين يرى البعض الآخر أن أنشطة المجتمع الدينية تعتبر ذات أهمية أكثر. وبعض الديانات تدعي أنها ديانات عالمية، معتبرةً قوانينها وعلم الكونيات الذي هو طابعها أنه ملزم على كل البشر[1].

ويعد **كليفورد غيرتز** (Clifford Geertz) واحدا من أشهر المناصرين لوضع تعريف جوهري للدين يشمل فكرة التفرد الجوهري... يقول **غيرتز**: "إن الدين عبارة عن: "نسق من الرموز التي تعمل على إنشاء أمزجة ودوافع تتسم بالقوة وسعة الانتشار وطول الأمد في الإنسان عبر صياغة مفاهيم عن النظام العام للوجود وتلبيس هذه المفاهيم بهالة حقيقية حتى تبدو الصيغ والمفاهيم واقعية بشكل فريد".[2]

المتأمل لرواية أشباح الجحيم نجدها حافلة بالكثير من الأحوال الدينية السائدة في بيروت فنجد الروائي يوضح مدى ارتباط سكان مدينة بيروت بالمسجد فهو يحمل دلالة عقائدية توحي بأن تلك المدينة مسلمة تهتم بدور العبادة والتعليم ومن أجل ذلك قام أهل بيروت بالتقرب للمساجد ففيه تعلم الناس أمور دينهم ويقوم على تلك المساجد مجموعة من

المنارة للاستشارات

المشايخ الذين يتمتعون بالاعتدال المذهبي، لكن بسبب التقليد الأعمى للغرب فقد انصرف الناس عن أمور دينهم ووقعوا في براثن ملذات الحياة فلم يعد لهم الاكتراث بأن الغد هو يوم الأحد "إنه السبت وهي تستعد في هذه الليلة لفقس بيضها. فالناس سينفجرون إلى غاية الفجر في مبالغة تجعلهم في منأى عن أجراس الأحد".[3]ذلك اليوم المقدس الذي ينتظرونه كل أسبوع لأداء الصلوات والاستماع للمواعظ فكانت المدينة تقدس يوم الأحد، وتعد له العدة من أجل الذهاب للكنائس والمعابد لأجل أداء الصلوات، والاستماع إلى المواعظ مصطحبين في ذلك الأطفال لتعليمهم صحيح الدين وتدريبهم للحفاظ على هويتهم، ودينهم .حيث كانت هناك مواعيد لتلك الصلوات والمواعظ لابد من المحافظة عليها؛ فكانت بذلك تغرس التزاما في نفوس الناس، وتجعل بينهم ألفة ومودة وترابط يزيد من حبهم لبعضهم البعض وينعكس ذلك على حبهم لوطنهم وزيادة الانتماء إليه، فقد انشغلوا بذلك الزيف والتقليد الأعمى غير عابئين بما يدور حولهم ، فكانوا يقضون لياليهم في تلك الأوكار ذات الأنوار المبهرة حتى الصباح.

ويذهب ذلك الشـاب بعقله في مقارنة بين ما يدور في هذه المدينة التي أتى إليها وبين بلده الذي أتى منه، فيرى كيف أن أهل "**كفر كرم**" متمسـكين بمبادئهم محافظين على دينهم؛ويظهر ذلك جليا في المقطع الآتي "كان والدي يجلس في الفناء جلسة ناسك، تحت ظل شجرة عصية التصنيف. بعد صلاة الفجر التي يؤديها حتما في المسجد، يعود إلى الساحة يحرك كوريات سبحته، اليد المعاقة في تجويف عباءته ؛ لقد فقد استعمال ذراعه في انهيار بئر كان ينظفها".[4]

فهو يرى ذلك في شخصية والده الذي يحافظ على أداء الصلوات في المسجد، ولاسيما صلاة الفجر بتلك النفس الهادئة وذلك الإيمان الذي يضفي عليها وقارا وهيبة.

وتحوي الرواية تلك الإرهاصـات التي جالت في نفوس الناس بأن ضـعف الإيمان كان سـببا في احتلال الأمريكان للعراق، فلم يعودوا يرون ذلك الإيمان الداخلي؛ فقد فقدوه والمقطع الآتي يوضـح ذلك "الإيمان فقدناه، ومعه فقدنا وجهنا.. –على حسـب علمي مسـاجدنا عامرة دوما..– نعم، ولكن أنظر إلى حال المؤمنين؟ أناس يذهبون إلى الصلاة بشكل آلي،ثم يعودون إلى الأوهام

المنارة للاستشارات

بعد انقضـــاء الفرائض. ليس هذا هو الإيمان. "[5] إذ أنهم يذهبون إلى الصـــلاة بأجسادهم كمن يذهب لأنه تعود على ذلك جسد بلا روح، فهو داخل المسجد وعقله خارجه وبمجرد الانتهاء من الصـلاة يعودون إلى الدنيا والتنافس عليها متجردين من ذلك الإيمان.فاسـتغلت المسـاجد في تلك الفترة لنشـر أفكار معادية للسـلطة والنظام وتحاول إعلان الأفكار الخطيرة والمضـرةفهذا القول يؤكد غياب إيمانهم بمعناه الحقيقي والتمسـك بشـؤون الدنيا والمقطع الآتي يوضـح ذلك"فإذا كان أولياؤها القديسـون قد تنكروا لها وسلموها هكذا إلى صدمة الحروب وهشاشة المستقبل فلربما حصل ذلك بسبب عنادها وإرادتها في التشـبه بمدن الأعداء عاشـت الكابوس، في حجمه الطبيعي-فيما نفعها؟".[6] يشـير الكاتب هنا إلى غياب دور أولئك "الوعاظ"[7]والمعلمين في الكنائس والأديرة، وكل أماكن العبادة والذين يقع عليهم عاتق العودة بالناس إلى طريق الدين الصـحيح، ولكنهم كانوا كمن سلبت إرادته فأصبح لا يستطيع فعل أي شيء حتى وإن كان نصح الناس بالمحافظة على هوية وطنهم وضعفوا أمام عناد الناس وانبهارهم بالغرب ومحاولة تقليدهم.

ولم يقتصر الأمر على ضعف الإيمان فقط، وإنما كان هناك شيء آخر كافيا لإضعاف العراق وأهله أمام المحتل، وهذا الشيء هو الفرقة في الدين، والاختلاف بين السنة والشيعةفبدأت تظهر في تلك الفترة جماعات إسلامية منظمة تنظيما جيدا، أولى جماعات العنف مقتنعة بما تفعل لأنها أصبحت متشبعة بأفكار تعتقد هي بصحتها "تشير الرايات السوداء المعلقة على السقوف أن السكان من أهل الشيعة تصرف يظهرون من خلاله أنهم منفصلون عن تصرفات أهل السنة ولكي ينضموا إلى جانب متملقى النظام الجديد".[8] وكان هذا الأمر كافيا لأحداث تلك الفرقة بين الشعب العراقي والتي استغلها ذلك المحتل لتحقيق مآربه،فاعتناق تلك الأفكار الخاطئة والتفسيرات المنحرفة للدين والحياة يؤدي بدوره إلى اضطراب في أمور المجتمع والسلم. وقد أدت الفتنة مع تأججها إلى تحول استراتيجي في اختيار القادة لهذه الحرب فبعد أن كان القادة من العسكر أصبح القادة من رجال الدين بطوائفهم المختلفة، ووجد المتطرفون الأرض الخصبة لتحقيق مآربهم،فوجدوا في كنف هذه الجماعات متنفس عن ذاته في اتجاه آخر وهو اتجاه الإسقاطات والآمال جاءت على شكل أفكار تعوض الحصول على تلك الحقوق المستبدة بأمل في الحصول عليها بما هو آجل

المنارة للاستشارات

وتصبح تلك الأفكار بصفة دينية فتصبح دينا يتدين به المظلومون في حقوقهم المستبد عليهم.

إن مجريات الأمور عقب بدء الغزو تؤكد تماما صحة ذلك فقد استولى الشيعة على الأسلحة والمعدات التي تركها الجيش العراقي استعدادا لمعركتهم الأكبر مع السنة وفتحوا الطريق أمام الاحتلال بل ضربوا البقية الباقية من الجيش العراقي من الخلف وأحبطوا الهجمات التي كانت معدة بالطائرات المملوءة بالمتفجرات"العراقيون ينفجرون تحت الضغط.اتهم على شفى حفرة من الحرب الأهلية. لذلك علينا أن نتدخل سريعا لنجنب المنطقة السقوط في انهيار لا تنهض بعده أبدا... بدأ أهل الشيعة والسنة يتقاتلون، أضاف السيد.. مئات القتلى، وذهنية الثأر والانتقام تزحف بوتيرة جنونية"[9]فقد قام سكان الشيعة في مدينة البصرة بمجزرة بشعة في حق أهل السنة بعدما اقتحمت القوات البريطانية المدينة وحدث ما لا يصدق من جموع الشيعة من فرح ورقص هستيري وترحيب بالقوات الأمريكية، إلا أن الحال مختلف تمامًا بالنسبة للأحياء السنية التي بدا الحزن عميقًا على الوجوه.فبلغ التطرف غايته وذلك بالسقوط في هاوية التفكير بحيث يستبيحون سفك الدماء ونهب الأموال والأعراض ولا يرى لهم حرمة ولا ذمة،وهذا زعم خاطئ فكثيرا ما يصرحون بأن دماءهم كثيرا ما سفكت على مذبح الحرية، فما معنى الحرية بالنسبة لهم؟ وأنهم وحدهم لا غيرهم على حق فهم حماة الدين ويمهون بذلك على الجماهير الغير الواعية دينا التي لا تملك بحكم تدينها إلا بالتعاطف والانسجام معهم وكيف لقاتل النفس بغير ذنب أن يدعي أنه من حماة الدين ؟

فهناك مجموعة جندت أهل السنة وجعلتهم يؤمنون بأنهم أهل الحق وأنهم سوف ينتصرون على الفئة الباغية من أهل الشيعة، وهناك مجموعة جندت أهل الشيعة على أنهم حزب الله المنتصر، واستطاع المحتل أن يوسع الهوة ما بين السنة والشيعة، ويثير العداوة بينهم ويستميل أحد الفريقين ليكونوا معه ضد أبناء الدين الواحد والوطن الواحد، ومع تلك الأحداث وفرقة أهل الدين الواحد وانضمام جانب منهم للاحتلال أصبحت البلاد غير آمنة للكثير من

المنارة للاستشارات

أهلها فقد كانت الأماكن تحت أنظار الشرطة وعرضة للمداهمات في أي وقت" الظاهر أنك لست من هنا. كل الفنادق مراقبة وقد أغلقت معظم الفنادق تحت تهديد الشرطة ومداهماتها الليلية....اذهب إلى المسجد. المداهمات هناك نادرة، زيادة إلى أن المبيت مجاني".[10]فكانت المعلومات متداولة ومنقولة في كل مكان فقد باتت المصلحة أغلى من العقيدة،ولكن ما زالت المساجد هي الملاذ الآمن في تلك الظروف ،كما أنها غير مكلفة لمن يتخذ منها مأوى له. وبذلك أصبحت المساجد تقوم بدور آخر خلاف الصلاة والعبادة والمناقشات في أمور الدين والعقيدة فقد أصبحت مأوى لكل عابر سبيل، أو من يريد الاحتماء من ملاحقات الشرطة.

تقهقر الدين ليس قاصـــرا فقط على العراق وأهله وإنما المحتل أيضـــا الذي يلتف بعباءة الدفاع عن الدين المســـيحي إذا اضـــطرته الظروف أن يخالف مبادئ هذا الدين ويدوس بقدميه على عقيدته في مقابل الحصول على حفنة من المال فإنه لن يتوانى في فعل ذلك ويظهر ذلك جليا في المقطع الآتي " إنهم نهابون مخيفون، هذه هي صفاتهم الحقيقية. سـيدوسـون جسـد المسـيح ليملؤوا جيوبهم، وحينما يعارضـهم أحد، يخرجون أسـلحتهم الثقيلة ويقنبلون مقدساتنا، يرجمون آثارنا ويمسحون أوساخهم بكتبنا القديمة".[11] فالدين لم يعد له كيان مع الدنيا، والعقيدة تصدعت من تلك الضربات والأطماع فكل الكلام باسم الدين والإنسـانية ما هو إلا زيف سـاقه المحتل أمامه ليفتح له الطريق إلى الانقضـاض على ثروات البلاد والعباد، فالكاتب يشـير هنا إلى قضـية مهمة ألا وهي أن الحرب الأمريكية على العراق جوهرها ديني بحت وذلك انطلاقا من مبادئ وأفكار إيديولوجية فهي تروج وتكون لنفسـها أفكار مسـيحية أسـاسـها تحقيق توافق وتناغم خدمة لمصـالحها السـياسـية وأهدافها انطلاقا من تلك القناعات الدينية التي تتبناها لتحقيق أهدافها الإستراتيجية .

توضح الرواية أن المأساة الدامية التي يعيشها المجتمع تُبْقِي الكلمة الأولى والأخيرة للعلماء والمرجعيات الدينية الذين يتوجب عليهم التغلب على الفتاوى المحرضة على القتل والمقطع الآتي يوضح ذلك "إن المسلمين مع من يحمل صوتهم إلى أبعد حد ممكن.لا يهمهم إن كان إرهابيا أو فنانا، مخادعا، أو عادلا، عالما مغمورا أو عبقريا. إنهم بحاجة إلى أسطورة،

المنارة للاستشارات

إلى معبود. شخص يمكن أن يمثلهم، أن يقرأهم في تعقيداتهم، أن يدافع عنهم على طريقته. بالقلم أم بالقنبلة، غير مهم بالنسبة إليهم".[12] فما عمل هذه الجماعات التي تهول وتجول باسم الدعوة إلى العودة إلى الشريعة الإسلامية فتأخذ مال هذا وتروع أسرا ومجتمعات خدمة لمصالحها ما هي إلا صورة من صور "التطرف الديني"[13]فهم يذهبون في معتقداتهم ومسالكهم إلى أقصاها في اتجاه المغالاة والتشدد ويلجئون لممارسة العنف بكل أشكاله تحت راية "**الجهاد**".[14]ويعود ذلك إلى فهمهم الخاطئ للدين، فكان السبب الرئيسي الذي قادهم إلى العنف الديني حيث يعد أخطر أساليب العنف لأن الذين يمارسونه ضد الآخرين يفعلون ذلك كواجب مقدس مستندين في ممارستهم له إلى تفسيرهم الخاطئ لنصوص مقدسة وهذا هو حال هذه الجماعات كاستعمالهم الخاطئ لمصطلحي **الجهاد** و**الولاء** والطاعة، وقد تمظهرت أحداث الإساءة الدينية في الرواية بشكل كبير تظهر جلية في هذا المقطع السردي "لماذا المسلمون غاضبون؟ دراسة حول الأصولية الجهادية، الكتاب الذي أثار حينها سخط رجال الدين. كان محل جدل في أوساط المثقفين العرب، والكثير منهم ناقمون عليه. كانت نظرياته حول خلل وتفكك الفكر الإسلامي المعاصر مرافعات حقيقية، رفضها الأئمة جملة وتفصيلا، ذاهبين إلى حد تكفيره، وتكفير قرائه".[15]فجعلت تلك الأحداث المثقفين يتخبطون ما هو الوضع الصحيح للدين في هذه الظروف الحالكة منهم من نادى بالجهاد طبقا للأصولية الفكرية والجهادية ومنهم من رأى خلاف ذلك ومنهم من رأى أن مصلحة المسلمين مع الشخص الذي يحمل أحلامهم وآمالهم إلى الآفاق من أجل تحقيقها دون النظر إلى طبيعة هذا الشخص،فالحرب الأمريكية على العراق هي حرب ضد الإسلام والمسلمين بالمعنى الواضح الجلي جاءت تحت حجة التصدي والوقوف في وجه الإرهاب الظالم والمستبد وكانت العراق متصدرة في قائمة الدول العربية التي تتبنى وترعى الإرهاب على حد تعبير الأمريكان .

يمكن القول بأن إغفال النظام حقيقة مفادها بأن عدم الوعي والفهم السطحي للنصوص الدينية الناجم عن الفراغ الديني الذي كان يعيشه الشعب العراقي تلك الفترة كان السبب الرئيسي في خلقه لعدم اهتمامه بهذا الجانب الهام من حياة العراقيين. إذ حاولت هذه الجماعات استغلال هذه الفتنة التي كان يعيشها الشعب العراقي كوسيلة

المنارة للاستشارات

لتحقيق غاياتهم لمحاربة النظام الفاسد وتشكيلها كأرضية خصبة لزرع أفكار متطرفة متعصبة بعيدة كل البعد عن الإسلام الحقيقي.

ثانياَ–ثيمة العنف في رواية أشباح الجحيم

يعرف العنف على أنه رغبة الفرد في سرقة بعض الأشياء والمشاجرة والإيذاء ومخالفة القوانين، كما أنه كل قول أو فعل ضد الرأفة والرفق واللين وهو الوسيلة الأخيرة في يد الإنسان للإفلات من مأزق.[16]

وفي هذه الرواية نجد أن اغتيال رفيق الحريري يعيد ذكرى الحرب الأهلية اللبنانية إلى الأذهان تلك الحرب التي سعى الحريري جاهداً لإزالة آثارها أثناء توليه رئاسة الحكومة بعد اتفاقية الطائف. وبعد نحو عقد ونصف على انتهاءها عادت السيارات المفخخة، إحدى أشهر أسلحتها إلى السطح ووضعت نهايةً لحياة الحريري.[17]فالكاتب يشير في هذه الرواية إلى قضية مهمة ألا وهي ربط قضية اغتيال الحريري بغزو العراق فلا يمكن الفصل بينهما فحادثة اغتيال الحريري تعتبر نقطة حاسمة في انفجار الأحداث التي شهدتها العراق فهي ليست مجرد جريمة اغتيال فحسب بل كان وراءها مخططا سياسيا مثل مشروعا سياسيا واقتصاديا وهذا ما يظهر جليا في المقطع الآتي "أليست هذه الأيدي هي نفسها التي تطلق الرصاص في الظلام، تذبح وتخنق تخفى متفجرات تحت مقاعد الأشخاص غير المرغوب فيهم؟ صحيح أنه لم تحدث غارات عقابية منذ أن وصل إلى بيروت، ولكن في سجل مستقبليه مجازر رهيبة. إن ما يقرأه في عيونهم لا يخطئ: إنهم الموت زاحفا. عثرة عابرة، إفشاء سر، ولا يجد حتى الوقت الكافي لإدراك ما يحدث. منذ أسبوعين فقط، وجد عماد الفتى المكلف بالاهتمام بي يتخبط في برازه وسط ساحة عمومية. بالنسبة للشرطة إن عماد مات بسبب جرعة مخدرات قاتلة. وهذا أفضل أصدقائه الذين أجهزوا عليه بحقنة معدية، لم يحضروا جنازة دفنه، تصرفوا كأنهم لم يعرفونه، لا من آدم ولا من حواء".[18]فجاء هذا "الاغتيال"[19]في الوقت الذي يستعد فيه لبنان للانتخابات النيابية. وشهدت فترة التحضير لها جدلا متصاعدا حول تقسيم بيروت "طائفيا"، وهو الأمر الذي رفضه

المنارة للاستشارات

الحريري. وفي هذا الإطار نادى البعض بتقسيم العاصمة بيروت ، وقد اعتبر البعض هذا القرار بمثابة خطوة قد تكون مقدمة لفتنة طائفية ومذهبية قد تعصف بلبنان، ويخشى من سقوط البلاد مرة أخرى في دوامة العنف على ضوء ذلك. وما يزيد من هذه المخاوف أن جراح الحرب لا تزال حاضرة وأن والوفاق لا يزال هشاً رغم مرور أكثر من خمسة عشر عاماً على هذا الوفاق.

وتنتقل الرواية من سرد أحداث بيروت، وهذا العنف الذي يتجول فيها على استحياء ولكنه قد ينفجر في أي لحظة إلى بغداد التي جاءها العنف بكل قوة على يد أولئك الغزاة والمقطع الآتي يوضح ذلك "فحينما تلألأت سماء بغداد بأسهم نيران غريبة كنت أشيد لها آفاقا رائعة. ارتفعت صفارات الإنذار في صمت الليل طفقت العمارات تتحول إلى دخان ذابت الغزليات الأكثر جنونا وسط الدموع والدماء احترقت كراريسي وكتاباتي الرومانسية في الجحيم وسلمت الجامعة للمخربين والأحلام لحفار القبور".[20] فقد عانت مدن العراق خلال الغزو من ضرر كبير أصاب جل القطاعات فضلا عن عمليات النهب والسرقة التي حصلت بسبب انعدام الأمن علاوة على ما نشر حول سماح قوات الغزاة بسرقة وتخريب الممتلكات وخاصة المتحف العراقي التاريخي الذي نهبت مقتنياته الشاهدة على حضارة العراق التي تعود إلى ما قبل التاريخ، وكان جيش الغزاة مدججا بالسلاح والذخيرة التي أضاءت السماء عند إلقائها على العراق وأهله وكأن هذه البلاد قد كتب عليها أن تعيش العنف بكل صوره وأشكاله "رجال صدام حسين ساهرون بسبب كلمة واحدة لا يستسيغونها، تهجر العائلة بأكملها؛ فكانت مدافن الجثث والمقاصل تنبت في كل مكان".[21]يشير الكاتب هنا إلى أن العنف في العراق كان قبل الغزو ممنهجا من قبل النظام الحاكم فكل من تسول له نفسه معارضة هذا النظام تنصب له المقاصل في كل مكان، وفي كل وقت فكلمة اعتراض واحدة من فرد كافية لتشتيت عائلة بأكملها.

ويزداد العنف تأججاً في مرحلة الغزو الأمريكي للعراق فوصل إلى أقصى درجاته وهذا ما يظهر جليا في المقطع الآتي "يصرخ العسكري الأسود إلى حد تمزيق حنجرته. بمجرد أن وضعت قدما على الأرض أقلعني من السيارة وأجبرني على الجثو، تركته يهزني

المنارة للاستشارات

على هواه. تراجع إلى الوراء ثم أمر الحداد بالنزول الرشـــاش موجه نحو المقعد الخلفي".[22] حيث تعامل جنود الغزو، والموالون لهم مع الشعب العراقي بمنتهى القوة، وبلا رحمة فحركة منك وأنت تســـير في الطريق لا تلقى لها بالا كافية بأن يوجه صـــوبك هؤلاء الجنود أسـلحتهم ويقتلونك بلا رحمة أو شـفقة"كانت كل رصـاصـة تخترق جسـد الهارب تمزق أحشـائي. التهمني تنمل شـديد، بدأ بالسـاقين قبل أن يندفع نحو بطني. واصـل سـليمان الرفض، كأن الرصـاصـات لم تخيط ظهره إلى جانبي، يصـرخ الحداد كالمجنون، وجهه مغطى بالدموع".[23]فعند هؤلاء الناس لا شيء يشفع لك فسواء كنت مريضا أو سليما قويا أو ضـعيفا كل ذلك عندهم سـواء فمجرد ورود الشـكوك إلى قلبه تكفي لقتلك وتمزيقك. فعندما خاف سليمان من صراخهم لم تشفع له أمراضه العقلية ولا الدم الذي ينزف منه عندهم ليتركوه وبدلا من ذلك انهالت عليه الرصاصات لتخترق جميع أنحاء جسده.

ويرى البعض أن سـاسـة العراق الجدد من جهة والصـدامين والسـلفيين من جهة أخرى يقومون بإشعال موجة العنف وتوجه أحيانا الاتهامات لنظام البعث السوري بتسهيل مرور موجات الانتحاريين من دول أخرى"فمنذ ســنوات والعراقيون يقاتلون العدو. مدننا تفتت يوميا بسـبب السـيارات المفخخة والكمائن والقنابل. السـجون غاصـة بإخواننا، ومقابرنا قد اتخمت".[24] فالكاتب يحيلنا إلى أن نقطة مهمة ألا وهي أن الغزاة يتهمون دول الجوار برغبتها في عدم اسـتقرار العراق تحت سـيطرتهم، فقد أدانت كل دول الجوار العراقي أعمال العنف في العراق، ونددت كل من إيران وسوريا والسعودية بعدم الاستقرار في العراق الذي من الممكن أن ينتقل لدول الجوار العراقي.

ومما جعل العقول لاتصل إلى سبب معين لهذا العنف إنه يتقلب على كل شكل من الأشـكال، فأصـبح العنف متأججا في كل ركن من أركان البلاد مثل ما حصـل في مدينة الفلوجة "أخذنا مقدم النشـرة إلى جهة الفلوجة حيث تحدث معارك ضـارية بين القوات العراقية، المدعمة بالقوات الأمريكية، وبين المقاومة الشـعبية. أقسـمت المدينة الحاضرة أن تلفظ أنفاسها عوض حط السلاح والاستسلام؛ كانت تقاتل بعناد شرس، رغم الخراب والنيران الملتهبة. تحدثت الأخبار عن مئات القتلى، غالبيتهم من النســاء والرجال. داخل المقهى صمت جنائزي يسحق القلوب. كنا شاهدين على مجزرة رهيبة من

المنارة للاستشارات

جهة عساكر مدججون بالسلاح، مدعمون بالدبابات، والطائرات المروحية ومن جهة أخرى شعب أعزل، مسلم إلى نفسه".[25] فهنا في الفلوجة تدور معارك ضارية بين جنود الاحتلال المدججين بالسلاح تدعمهم الدبابات على الأرض، وتؤازرهم وتحميهم الطائرات في السماء مستندين ومدعومين من أولئك الموالين لهم من القوات العراقية هذا من جهة ومن الجهة الأخرى شعب أعزل يدافع عن أرضه وعرضه وكانت النتيجة الحتمية لذلك مجزرة كبيرة راح ضحيتها المئات من الرجال والنساء والأطفال .

كما يشير الكاتب إلى ذلك العنف الممارس من قبل مجموعات مجهولة لا يعرف لها أحد هوية ولا يفرقون بين من يقتلونهم فقتلاهم قد يكونوا من الغزاة أو من الشرطة العراقية أو حتى من الشعب العراقي " ثلاثة أسابيع بعد ذلك، أحرقت محطة الضخ المهملة التي كانت تتفتت على كيلومترا من **كفر كرم** من قبل مجهولين. انتشر خبر مفاده أن دورية من الشرطة العراقية قد تعرضت لاعتداء خلف عددا من القتلى في صفوفها، وتدمير سيارتين وبنادق استولى عليها المتمردون".[26] وكان ذلك نتيجة للعنف والعدوانية التي كان يعيشها الشعب فقد كان في حالة متقهقرة مست جميع الجوانب، ليجد نفسه أمام واقع مرير غاب فيه كل مبادئ الضمير الإنساني فأصبح الإنسان كتراب يداس عليه وسط ذلك الوضع المتأزم الذي لم يتوقعه يوما.

وبمرور الوقت تتزايد وتيرة العنف في العراق وتصبح أكثر فظاظة وأكثر وحشية وتقترب أكثر وأكثر من قرية **كفر كرم** فلا يوجد مكان يكون في منأى عما يحدث في باقي البلدان حتى ولو كان معزولا وسط الجبال أو الصحراء والمقطع الآتي يوضح ذلك " حيث كانت بناية كبيرة أكيد أنها قاعة الحفلات تحترق في قلب كومة من الخراب المدخن. لفظت قوة الانفجار المقاعد والأجساد على بعد ثلاثين مترا. يتيه الأحياء بأسمالهم الرثة، أيديهم نحو الأمام أشبه بالمكفوفين كانت بعض الأجساد ممددة على حافة درب مشوهة مفحمة".[27]فلا يوجد شخص في مأمن من تلك الهجمات وتزايدت قوة الانفجارات يوما بعد يوم كي لا تترك في محيطها أي أحياء فهي تقوم بعملية تدمير شامل من تدمير للمباني، أو قتل للأرواح دون التفرقة هل هي مذنبة أم لا، نجد بجوار **كفر كرم** حيث فجرت قاعة للحفلات تفجيرا هائلا هز أرجاء كفر كرم مستغلين التجمع الموجود داخل

المنارة للاستشارات

تلك القاعة لإيقاع أكبر عدد من الضحايا من قوة تلك التفجيرات تتفحم الأجساد، أو تتقطع إلى أجزاء، ولا يمكن التعرف عليها،ومن ينجو في تلك التفجيرات ينجو بأعجوبة. وعلى الجانب الآخر تقوم بعض المجموعات التي تظهر بأسماء مختلفة منها مجموعة الفدائيين، أو المقاومة المسلحة، وغيرها من تلك المسميات باغتيالات لبعض الشخصيات التي تنتمي للشرطة أو للجيش" فبعد أسابيع قليلة قتل محافظ الشرطة بداخل سيارته الوظيفية. في اليوم نفسه دمرت شاحنة عسكرية من طرف قنبلة يدوية الصنع".[28] فتركز هذه الجماعات على ممارسة العنف والجرائم على الشخصيات التي لها مكانة في البلد كما تقوم بتكبيد الخسائر لهما من تدمير للمقرات وسرقة للأسلحة، وتدمير للسيارات التي تقلهم ليوقعوا أكبر ضرر ممكن على تلك المؤسسات الشرطية والعسكرية ومحاولة تعجيزها عن مساعدة الاحتلال.

وأخيرا دخلت **كفر كرم** وسط الأحداث المحيطة بها من تقتيل وسلب للكرامة وسلب للحرية وسلب للعرض ولم تشفع لها عزلتها عن العالم بأسره،فهي قرية لا حول لها ولا قوة لا تستطيع أن تحرك ساكنا فأهلها مسالمون تعليمهم محدود منشغلون بالحصول على لقمة العيش ولكن لم يسلموا من جبروت جنود الاحتلال وهذا ما يظهر جليا في المقطع الآتي "انفجرت شتائم أخرى من عمق البهو يندى لها الجبين. قذفت أمي خارج غرفتها ؛ وقفت وأسرعت بتقديم العون لزوجها المعوق.أتركوه إنه مريض. أخرج العساكر الشيخ ولم أراه أبدا في تلك الهيئة. بسرواله الداخلي الرث الذي يصل إلى ركبتيه وتريكو ممزق في الأطراف تجاوز شقاؤه كل الحدود".[29]فقد قاموا بالهجوم على بيوت وأهالي القرية دون رحمة أو شفقة، وقاموا بإذلالهم، وانتهكوا أعراضهم أمام ذويهم مما دفع شباب القرية للانضمام للمقاومة كي يأخذوا بالثأر لذويهم، وتربت بذلك بذرة الانتقام داخل قلوبهم لتكبر يوما بعد يوم وقد بات الاقتتال في كل مكان وانتشر الانفلات الأمني في أرجاء العراق فلا يوجد مكان آمن، ومع انتشار الفقر والفوضى فقد انتشرت العصابات المسلحة وقطاع الطرق وانتشرت السرقة ونهبوا أموال الناس بالكاد ينجو بعض المسافرين من عمليات السطو المسلح أثناء الطريق فلا يوجد من يعاقب على تلك الأفعال،ومن أراد مقاومة أي اعتداء عليه يقابل بوحشية لا نظير لها إلى حد الاختطاف والقتل. وأصبحت

المنارة للاستشارات

العراق مرتع للقتلة والسفاحين "يدافع الرجل المسكين عن نفسه بشهامة. رد الصاع صاعين. ولكن في نهاية المطاف تغلب عليه اللصوص أسقطوه أرضا تهجموا عليه بتوحش لا نظير له، وعندما جردوه من أمتعته أخذوه معهم. كانت الساعة حوالي السادسة صباحا، ومنذ ذلك الوقت لم يغمض لنا جفن".[30] يظهر لنا من خلال هذا المقطع السردي أن تلك الصراعات قد طالت الحياة العامة للشعب على المستوى الاجتماعي والسياسي والثقافي، وذلك بتصاعد موجات الاضطرابات التي مست كل شرائح المجتمع فأصبح الشعب يوميا تحت وطأة الخوف والرعب والفزع ويظهر ذلك جليا في المقطع الآتي "تجاوزنا الأمر داخل العيادة. يوميا، نتلقى المرضى والجرحى والمشوهين بالعشرات. اعترف أغلب الأطباء بالإخفاق".[31] فالكاتب هنا يشير إلى تلك الأعداد الغفيرة للضحايا التي سقطت جراء التفجيرات التي تحدث بين الحين والآخر،فنجد المستشفيات قد امتلأت بالمصابين بإصابات مختلفة فمنهم المبتور عضو من أعضائه ومنهم المحروق والمشوه، ومنهم من لقي حتفه،وباتت المستشفيات لا تتحمل تلك الأعداد الكبيرة من الجرحى والمصابين فقد فاقت تلك الأعداد قدرتها الاستيعابية،ولم يعد الأطباء قادرين على القيام بعملهم على أكمل وجه.

وتوضح الرواية مدى وحشية جنود الاحتلال وممارساتهم اللا آدمية على الشعب العراقي دون تمييز بين طفل صغير أو شيخ كبير فهم يقتلون أناسا لا حول لهم ولا قوة "حصار فلوجة الضرب الوحشي الذي سلطه العساكر الانجليز على أطفال عراقيين تم القبض عليهم خلال مظاهرات شعبية، الإعدام النافذ الذي مارسه عسكري على مدني مجروح في قلب مسجد، طيارة مروحية أمريكية تطلق النار على قرويين تعطلت شاحنتهم ليلا وسط حقل".[32] يشير الكاتب هنا إلى ذلك العنف المجتمعي الذي مس كل شرائح المجتمع فلم تسلم منهم حتى تلك الفئة البريئة فراحوا يضربون أولئك الأطفال دون رحمة ولا هوادة، بالرغم أنهم يطلقون تلك الشعارات الرنانة لحقوق الطفل وحقوق الإنسان ولا يطبقوا أي من هذه الشعارات، وتتضح تلك الممارسات الوحشية في الرواية من حصار مدينة الفلوجة، فقد مارس جنود الاحتلال العنف بكل أشكاله على أهالي تلك المدينة من ضرب للأطفال وقتل للمدنيين العزل داخل المساجد دون احترام لقدسية تلك الأماكن

المنارة للاستشارات

أو رحمة وضـــرب بالطائرات لكل من لا يروق لهم دون اقتراف أي إثم أو ذنب. فهم يقومون بعملية إبادة جماعية لذلك الشعب لإضعافه وتحطيم معنوياته.

وردا علـى تلـك الممارسـات الوحشـية مـن جـيش الاحـتلال كانـت تقـوم بعـض المجموعـات الـتي كونهـا بعـض شـباب العـراق بعمليـات اختطـاف للأجانـب الموجـودين في العراق"الرهينـة أوربيـة، عضـو في منظمـة غـير حكوميـة اختطفـت بـداخل المستوصـف حيـث تشـتغل طبيبـة كانـت مسـجونة في قبـو بقـرب محافظـة للشـرطة. نقلناهـا دون عقبـة علـى ذقـن رجـال الشـرطة وسـلمناها لجماعـة أخـرى مختفيـة في مزرعـة علـى بعـد عشـرين كيلـومترا جنـوب المدينـة".[33]فتأخـذهم كرهـائن سـواء أكـان لهـم علاقـة بتلـك الممارسـات أم لا،فكانـت تلـك المجموعـات تمـارس العنـف علـى كـل مـن هـو أجنبي سـواء كـان صـحفيا أو طبيبـا أو جـاء مـن منظمـات غـير حكوميـة لإغاثـة النـاس ، فالكاتـب يشـير هنـا إلى أن الحـرب الطائفيـة بـين السـنة والشـيعة كـان لهـا الـدور الرئيسـي في إشـعال فتيـل العنـف بـين أهـل العراق،فقـد هـز هـذا الوضـع كـل القـيم والمعتقـدات ليتحـول مـن بـلاد أمـن واسـتقرار وسـلام إلى بلـد الرعـب والعنـف والتعصـب.فكل تلـك السـنوات الـتي مـرت منـذ أن وجـدت تلـك الطائفـة الشـيعية لم تكـن قـادرة علـى إزالـة الخلافـات بينهـا وبـين أهـل السـنة، بـل علـى العكـس مـن ذلـك فمـع مـرور الوقـت يـزداد الخـلاف بينهمـا لأن هنـاك مـن يهمـه ألا يـزول هـذا الخلاف،ويسـعى في نفـس الوقـت إلى إشـعال نـار الفتنـة بينهمـا.وكـان مـن يلعـب هـذا الـدور فـي كـل زمـان ومكـان، ودمـاء المسـلمين هـي الـثمن الـذي يـدفع لتلـك الفتنـة الـتي لا يعلـم نهايتهـا إلا الله عـز وجـل. وبـدأت نذر الحرب تلوح مع قدوم الغزو الأمريكي للعراق.

وفي وجـود تلـك الظـروف بـدأت الأجنـدة الخارجيـة توظـف تلـك الصـراعات لتحقيـق أغراضـها وأطماعهـا علـى حسـاب دمـاء المسـلمين ومئـات الضـحايا مـن أبنـاء الشـعب العراقـي، فيتولـد عـن ذلـك نـوع مـن الخـوف والرعـب الـذي يهـدد النظـام والأمـن والسـكينة والمقطـع الآتي يوضـح ذلـك ،"إنهـا الحقيقـة مـا يحـدث لا معـنى لـه. مجـازر ثم مجـازر ثم مجـازر. في الليـل والنهـار. في الشـوارع في السـاحات

المنارة للاستشارات

العمومية في المساجد. لا نميز بين الناس جميعهم في النار. "[34]حيث غلب التوتر على مختلف الأصعدة وهذا ما شهدناه في مختلف مقاطع الرواية، فقد خلفت هذه الأزمة التي مرت بها العراق الكثير من الأحداث وخسرت فيها الكثير من الدماء الطاهرة،فالقتال في كل مكان إما لمحاربة العدو وكل من يتعاون معه ونصب الكمائن والقيام بعمليات انتحارية ضدهم أو لمحاربة بعضهم البعض في عنف طائفي لم يسبق له مثيل.

ثالثاً– ثيمة السياسة في رواية أشباح الجحيم

إن العلاقة بين الأدب والسياسة علاقة ممتدة ومستمرة، وهنالك مناطق فاصلة بمعنى أن السياسة أحيانا تسبق الأدب بأحداث مثل أحداث الثورات، وأحيانا الأدب والثقافة يسبقون السياسة بالتمهيد والتطور، ولا تستطيع أن تقول إن الثورة تقوم في منطقة ما بالتحديد، لكنك تلحظ مجموعة من الكتابات والنصوص الأدبية تبشر وتنذر وتتنبأ بالمستقبل، ويمكن للسياسة أن تسبق الأدب، بمعنى أن يصدر بيان فجأة بأن الأمور غير مرضية وأنه لا بد من إحداث تغيير من أجل الوصول إلى تعادل ووصول إلى توازن في الحياة، وفي كل الأحوال إذا كانت السياسة تسبق فإن الأدب يستكمل وإذا كان الأدب يسبق فإن السياسية تستكمل، وكلاهما يؤثر على بعضه البعض[35].

فدور الرواية السياسية هو إتاحتها الفرصة للقارئ أن يفهم الظاهرة السياسية التي يرصدها النص.فنجدها مقترنة بالأدب وتغلغلت في أعماق كيانه والمجتمع هو منبع الإبداع الأدبي ينهل منه جل ومعظم القضايا التي تنقل أو ترصد لنا الواقع المعاش إما معالجا أو رافضا لذلك.

تتحدث الرواية عن الحياة السياسية أثناء مقتل رفيق الحريري حيث كان الوضع السياسي اللبناني متأزما للغاية فيها تعقيدات سياسية كبيرة واختلافات وعدم توافق في الاتجاهات وظهر ذلك التباين بعد مقتل الحريري فكانت "بيروت قضية مسفسفة تضحيتها مصطنعة، دموعها دموع تماسيح أمقتها من كل قواي، بسبب قفزات الكبرياء التي ليست جريئة بما فيه الكفاية ؛ ولا تواصل لديها تواصل في الأفكار، بسبب وضع أستها بين كرسيين تارة عربية حينما تكون الصناديق فارغة. وتارة غربية تكون المؤامرات

المنارة للاستشارات

عمليات مربحة.إن ما تقدسه في الصباح تتنكر له في المساء ؛ إن ما تطالب به في الساحة العمومية، تتبرأ منه في الشاطئ".[36] يشير الكاتب هنا إلى ذلك التخبط السياسي الذي ولدته مجموعة من الجهات المعارضة للحكومة التي ألقت اللوم على سوريا ودعت بمغادرة الجيش السوري البلاد في حين نجد مجموعة موالون للشيعة يدعون الجيش السوري بعدم الانسحاب وبقائه ومنهم من ألقى بالمسؤولية على الحكومة اللبنانية فهي تتحمل مسؤولية هذا العمل الإرهابي وإن لم تشارك فيه فالسياسة اللبنانية سياسية متذبذبة بين هذا وذاك حسب الظروف المحيطة به ،فنتج عن ذلك الاغتيال حالة استنفار وعدم استقرار أمني فظهرت احتجاجات تندد بالمعارضة والرفض فأصبحت السياسة اللبنانية غير مستقرة حسب الظروف المحيطة به فتارة تكون مع هذا وتارة مع ذاك ولا تقف موقفا موحدا من القضايا المحيطة به وعدم التوافق في اختيار ممثلا جديدا للحكومة الجديدة.

وكأنما بدا للمواطن العربي بوضوح مزاجية الحملات التي تُشنّ بين الفترة والأخرى ضد هذه الدولة وتلك باسم الغيرة على حقوق الإنسان والحريات والديمقراطية "لأنهم اعتنقوا القيم الغربية فإنهم صدقوا كل ما يهمس في آذانهم من مفاهيم نبيلة: حرية التعبير، حقوق الإنسان المساواة العدالة.... كلمات كبيرة وفارغة مثل الآفاق المسدودة. ليس كل ما يلمع ذهبا. كم من عباقرينا نجحوا؟ أغلبهم مات غيظا".[37] يشير الكاتب هنا إلى تلك الشعارات التي تبناها الغرب ونادى بها على أساس أنها تمجد حقوق الإنسان وحرياته ما هي إلا شعارات كتبت بحبر على الورق فقط ولكن العمل بها كان وهما مزيفا.

وتتحول الرواية للحديث عن الحصار الاقتصادي الذي فرض على الشعب العراقي والذي فرضه مجلس الأمن، وهو النفط مقابل الغذاء لإجبار العراق على الخروج من الكويت وما سببه ذلك الحصار من نقص في المواد الأساسية من دواء وغذاء. نتيجة الغزو العراقي للكويت، تم إقرار عقوبات اقتصادية خانقة على العراق لتجبر قيادتة آنذاك على الانسحاب الفوري من الكويت والمقطع الآتي يوضح ذلك "كان مشروع الأمم (**الغذاء مقابل البترول**) يتعثر وكانت الأدوية الأساسية تنقص كثيرا، حتى في السوق السوداء."[38] من هنا تتضح لنا نقطة مهمة ألا وهي أن هذا الحصار الاقتصادي ليس غاية في حد ذاته وإنما هو أداة ووسيلة لبلوغ أهداف ذات مدى بعيد وهي جعل العراق تحت وطأة أمريكا

المنارة للاستشارات

ورحمتها وجعلها تابعة لها وتحت سيطرتها الكاملة للاستيلاء على منابع النفط والتحكم في المصالح التي تخدمها هي وحلفائها .

فقد اتخذ الغرب احتلال العراق للكويت ذريعة لفرض ذلك الحصـــار وإنهاكه اقتصـاديا لدخول العراق وتدمير قوته العسـكرية. وعانى فيها العراق من عزلة شـديدة من معظم دول العالم سـياسـياً ودبلوماسـياً واقتصـادياً، أصـبح العراق بعدها من أكثر دول المنطقة تأخراً، والتي عاد بها إلى حقبة" ما قبل الصناعة، " قال الصقر معاندا لماذا يوجد الأمريكان هنا , فى رأيك ؟ أبســـبب الرحمة المســـيحية ؟ إنهم رجال أعمال يعاملوننا كأسـواق. بالأمس كان النفط مقابل الغذاء. اليوم إنه النفط مقابل صـدام. وما موقعنا في كل هذا ؟ خردة. لو كان لدى الأمريكان ذرة طيبة، لما عاملوا السـود واللاتينوس كسـكان الكهوف. "[39]فالكاتب يحيلنا هنا إلى الأسـباب الغير المباشـرة لاحتلال أمريكا للعراق التي بدورها أدت إلى فرض سيطرة أمريكا وحلفائها على العراق فقد احتلت العراق آنذاك موقعا استراتيجيا هاما كانت تزخر بالموارد والثروات الطبيعية وعلى رأسها النفط هذا من بين أهم الدوافع الأســاســية للغزو الأمريكي للعراق وكانت غايتها الأسمى من ذلك السيطرة على الاقتصاد العالمي أما السبب الثاني فهي شن حرب على الإرهاب بضرب نظام وحكم صـدام حسـين وذلك بشـن حرب يمكن القول عنها حرب نفسـية وذلك بالعمل على تشويه سمعة الرئيس صدام حسين بتصويره بجانب كإرهابي بهدف التأثير على نفسية العراقيين وإسقاط النظام العراقي .

وكان للمواجهات العنيفة والضـربات الموجعة التي تلقتها قوات التحالف والخسـائر التي منيت بها خلال حربها على العراق وبالأخص الخسـائر البشـرية" سـألني الحداد : هل سمعت إلى آخر الأخبار ؟ يبدو أن الايطاليين يسـتعدون للرحيل.. لم يحددوا الموعد بعد، المهم أنهم يحزمون أمتعتهم. "[40]فقد قررت إيطاليا الانســحاب من العراق فقد وصــفت الســلطة الحاكمة الحرب على العراق بأنه خطأ فادح. فقد زادت في الآونة الأخيرة أعداد القتلى من جنود التحالف لزيادة العمليات الانتحارية وشراسة المقاومة.

المنارة للاستشارات

وتحكي الرواية عن الأسباب الحقيقية في غزو العراق وهو السيطرة عليه، وليكون دائما تابعا للولايات المتحدة ولا تستقل بسيادتها فتخرج من تحت عباءة الأمريكان فهي كانت بين قوسين أو أدنى من امتلاك السلاح النووي الذي ستصبح به قوى عظمى منافسة لهم فالعراق بالنسبة لهم ما هي إلا أماكن ثروات" إن الولايات المتحدة الأمريكية تعرف شيئين يقلقان بجد مشاريعها التوسعية : الأول أن بلدنا على وشك امتلاك سلاح يضمن له السيادة الكلية : السلاح النووي. مع النظام العالمي الجديد، وحدها الأمم التي تتوفر على الترسانة النووية تستقل بسيادتها وليست الأمم الأخرى إلا أماكن أزمات محتملة، مخازن غلال مناسبة للقوى العظمى. المالية العالمية تسير العالم، والسلم بالنسبة إليها ما هو إلا بطالة تقنية. سؤال حيوي،و الثاني أن العراق كان يملك قوة عسكرية يمكن أن يواجه بها إسرائيل.وإركاع العراق يعني السماح لإسرائيل بالهيمنة الكلية على المنطقة إنهما السببان الحقيقيان اللذان أديا بأمريكا إلى احتلال العراق. "[41]يتضح لنا من خلال هذا المقطع السردي أن الكاتب يشير إلى نقطة مهمة غفل عنها الكثير من الساسة العرب وهي أن الغزو الأمريكي للعراق كان الهدف من وراءه حماية استقرار إسرائيل فالعراق كانت بالنسبة لهم تهديدا بسبب قوتها وحاجزا يقف في وجه تطور ونمو إسرائيل إضافة إلى رفض العراق التواجد الإسرائيلي في المنطقة كان سببا في العداء الأمريكي للعراق وعليه فتطور وتقدم وسيطرة إسرائيل على مختلف أقطار الدول العربية تعد من المصالح والأهداف الإستراتيجية لأمريكا بمعنى تواجد إسرائيل في المنطقة دليل على امتداد لأمريكا وخدمة لمصالحها "فطبيعة العدو تغيرت وطبيعة المخاطر تغيرت ولذلك يجب أن يختلف الرد عندما تهز الحي احتجاجات صاخبة ونداءات انتقام. يصرخون ضد أنصار الحرب الوقائية، يصفقون على أعداء أمريكا يصفرون على النواب الذين يصفونهم بالانتهازيين وعملاء بوش. "[42] فيظهر لنا من خلال هذا المقطع السردي أن أمريكا اتبعت هذه السياسة "سياسة عسكرية تتبنى مبدأ الضربات الوقائية"محاولة منها صرف الأنظار الأوروبية التي وضعت في حسبانها هدف إنشاء وإقامة قوة عسكرية بعيدة كل البعد عن السيطرة والهيمنة الأمريكية .لأن الهدف الأساسي لنظام بوش هو إسقاط النظام العراقي اعتبارا منه أن العراق تملك أسلحة للدمار الشامل هذا الأخير الذي من شأنه أن يشكل تهديدا

المنارة للاستشارات

لمستقبل أمريكا خوفا من الهجمات الإرهابية .هذا ما جعله يتبنى سياسة الاحتواء والردع العسكري.

ولكن ممارسة الإدارة الأمريكية لمبدأ " الضربات الاستباقية أو الحرب الوقائية "كان قد تمت في الواقع المعاش وذلك أثناء قيامها بسن هجومها على العراق،لكن في نهاية المطاف جاء هذا الهجوم على أساس ملفق إلى حد أدنى من الأكاذيب الواهية والذي لم تصمد طويلاً أمام الحقائق الواقعية والتي أدت في نهاية الأمر بملفقيها إلى الاعتراف بخطئهم دون أن تقديم تفسير واعتذار للضحايا العراقيين والأمريكيين الذين سقطوا ضحايا نتيجة لهذا الكذب فكان هدفه الخفي من وراء هذه الأعمال التخريبية زعزعة الكيان السياسي وإثارة الرعب والفزع بين المواطنين للتأثير على سياسة الدولة حتى يكون الطريق أمامه سهل للوصول إلى غايته الأسمى ألا وهي الغزو والاحتلال.

خاتمة :

بعد التقصي والبحث في رواية "**أشباح الجحيم** "لياسمينة خضرا تم التوصل إلى مجموعة من النتائج منها:

-أراد ياسمينة خضرا من خلال روايته هذه أن تكون تأريخا لمعاناة أهل العراق أثناء الاحتلال الأمريكي وحلفائها.

- عبرت رواية "أشباح الجحيم" عن الواقع الاجتماعي والسياسي والديني والنفسي للشخصيات الذي اتسم بالعنف والعدوانية التي عاشته إبان هذا الواقع المرير بحيث اهتزت الحياة العامة لها وتدهور النظام العام الذي بدوره شكل انعكاسات امتدت لتطال الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية.

- لقد كانت ويلات الحرب وأثرها على الأفراد والجماعات والقرى والمدن تمثل خلفية لمعظم الأحداث الروائية.

المنارة للاستشارات

– لقد أصبحت الحركات الإسلامية قوة منافسة للسلطة السياسية لقدرتها على تنظيم التعبئة الاجتماعية وخوض الصراع السياسي وأحيانا أخرى تكون قوة مدمرة تغير مسار حياة الشعوب ومستقبلها.

– عبر الكاتب في روايته هذه عن الاحتلال الأمريكي للعراق كظاهرة مركبة معقدة أسبابها كثيرة ومتنوعة ومتداخلة بعضها قريب وبعضها بعيد بعضها مباشر وبعضها غير مباشر،بعضها مائل للعين طاف على السطح وبعضها غائض في الأعماق،ومن هذه الأسباب ما هو ديني وما هو سياسي منها ما هو اجتماعي وما هو اقتصادي،ومنها ما هو نفسي وما هو فكري،وما هو خليط من هذا كله أو بعضه.

– تعد الرواية السياسية والاجتماعية انعكاسا للوعي النقدي من جهة والرغبة في التوغل في الحياة السياسية والاجتماعية.

– اعتمد ياسمينة خضرا في روايته "أشباح الجحيم"قضايا سياسية واجتماعية تتبنى في أغلبها على علاقة السلطة بالمجتمع.

الإحالات

[1] بوكيت أميريكين:**مقارنة الأديان**، تر: رنا سامي الخش، د ط، حلب: دار الرضوان، د ت، ص: 7،8.

[2] المرجع نفسه، ص: 9.

[3] الرواية، ص: 8.

[4] الرواية، ص: 32.

[5] الرواية، ص: 51.

[6] ياسمينة خضرا:أشباح الجحيم، تر: محمد ساري، ط1، بيروت، لبنان، دار الفارابي، 2005، ص: 7.

[7] واعظ مفرد، ج: واعظون، ووعاظ: اسم فاعل من وعظ. من ينصح الناس ويذكرهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. ينظر: أحمد مختار عمر. معجم اللغة العربية المعاصر. ص: 2469.

[8] الرواية، ص: 153.

[9] الرواية، ص: 323، 324.

[10] الرواية، ص: 184.

[11] الرواية، ص: 222.

المنارة للاستشارات

[12] الرواية، ص: 341.

[13] التطرف في اللغة: هو أطراف الأشياء، مكانا أو زمانا أو أجساما، ميلا عن أواسطها. ومجاراة لهذا المعنى اللغوي ربما أصبح التطرف يطلق على الذهاب في عالم الأفكار إلى ما فيه مبالغة غير معهودة عند الناس، فيكون القائل بها والمتبني إياها كأنما قد ذهب إلى أقصى ما يمكن أن يحتمله موضوعها من المعاني. ينظر: عبد المجيد عمر النجار: ظاهرة التطرف والعنف من مواجهة الأفكار إلى معالجة الأسباب،ج1، د ط، قطر، دار الكتاب للطباعة والنشر، 1436،ص: 21.

[14] هو استفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل أو بذل المشقة في هذا وذاك أو فيهما معا. وفي الفترة الأولى من التنزيل القرآني استعملت اللفظة في المدلول المعنوي الذي يفيد مجاهدة النفس أو بذل الطاقة أو تحمل المشقة في سبيل الله والدين الحق، وفي مواجهة الكفار وأعداء الدين لتحمل ضغوطهم والصبر على مكارههم. ينظر: محمد سعيد العشماوي: الإسلام السياسي، ط 5،لبنان، مؤسسة الانتشار العربي، د ت، ص: 31.

[15] الرواية، ص: 308.

[16] إسماعيل محمد الزيود:**العنف المجتمعي إطلالة نظرية**، ط1، الأردن، دار كنوز المعرف،2012، ص:18،19.

[17] http//www.alalan.ir/news ينظر يوم 2017/11/14

[18] الرواية، ص: 13، 14.

[19] يمكن تعريف الاغتيال على أنه القتل عمدا أو غدرا لشخصية هامة سياسية أو فكرية أو دينية أو طائفية ويعرفه جورج باركس رئيس الفرع القانون الدولي والشؤون الدولية في الجيش الأمريكي على أنه" جريمة قتل شخص مستهدف لأغراض سياسية" ينظر: http//rawabetcenter.com على الساعة 14.21 يوم 2017/12/11.

[20] الرواية، ص: 30.

[21] الرواية، ص: 44.

[22] الرواية، ص: 75.

[23] الرواية، ص: 75، 76.

[24] الرواية، ص: 89.

[25] الرواية، ص: 100.

[26] الرواية، ص: 112، 113.

[27] الرواية، ص: 122.

[28] الرواية، ص: 128.

[29] الرواية، ص: 131

المنارة للاستشارات

[30] الرواية، ص: 168.

[31] الرواية، ص: 177.

[32] الرواية، ص: 247.

[33] الرواية ص: 256،257.

[34] الرواية، ص: 263.

[35]–جاك رانسيير .: **سياسة الأدب**، ترجمة سهيل أبو فخر، د ط، دمشق، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب،،2011 ص :8.

[36] الرواية، ص: 9.

[37]الرواية، ص: 20.

[38]– الرواية، ص: 38.

[39] –الرواية، ص :48.

[40]– الرواية، ص: 41.

[41] –الرواية، ص: ص49–50.

[42]– الرواية، ص: 99.

المنارة للاستشارات